مقياس المصادر ---ماستر مقاومة

نماذج من المصادر الفرنسية الاستاذ تونسي جامعة خميس مليانة

إن تاريخ الجزائر خلال فترة المقاومات الشعبية كان حظه الأوفر من الكتابات الأجنبية المختلفة، خاصة الفرنسية منها، وسبب ذلك قلة المصادر والكتابات الجزائرية، عن تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر بأقلام جزائرية. ومن بين هذه المصادر التي اعتمد عليها الكثير من المؤرخين الجزائريين المجلة الإفريقية(La revue africaine) التي أنشأها الفرنسيون، وتم صدورها في الجزائر منذ منتصف القرن 19م والتي خصصت جزءا كبيرا من مواضيعها واهتماماتها لنشر وقائع المقاومات الشعبية بأقلام فرنسية، وقد سُجلت وقائعها من وجهة نظر معينة لخدمة الاحتلال الفرنسي في الجزائر، في إطار التأريخ لأعمال الجيش الفرنسي وتاريخ فرنسا الذي دعوه بعد ذلك بتاريخ فرنسا المحلي.

حاول الفرنسيون مع احتلالهم الجزائر صيف 1830- تجسيد مشروعهم الاستعماري الذي كان يسيطر عليه فكر الكلاسيكيين في المدرسة الأوربية، وتيار السانسيمونيين حديث النشأة آنذاك. محاولين إخراج الجزائر من طابعها الشرقي الإسلامي ومحاولة ربطها بالغرب والمسيحية من انها وريثة موريتانيا القديمة، وروما المسيحية، وان فرنسا أولى بها من المسلمين الفاتحين.

وشرعت منذ اولى سنوات الاحتلال في تنفيذ الفعل الاستعماري بطريقة علمية مبنية على ما ذكرنا من توجيه، عاملة على تبريره بالموروث الأثري الجزائري القديم المستمد من التواجد الروماني بها. فاتبعت نفس الطريقة التي اتبعتها في مصر، فأنشأت لجنة استكشاف الجزائر العلمي سنة 1837، وانجزت موسوعة استكشاف الجزائر العلمي من 39 مجلدا سنة 1839، وألفت في ذلك الكتب مثلما فعل دولامار سنة 1840، وأسست في السنة نفسها المتحف الجزائري بباريس، والجمعيات الأثرية بقسنطينة والجزائر ووهران سنة 1852، كما أنشأت المفتشية العامة للآثار التاريخية والمتاحف الأثرية بالجزائر سنة 1854.

اذ عملت فرنسا على توظيف الآثار في خدمة الاستعمار (والذي هو فعل تاريخي) ونظرا لطبيعة الاستعمار التي كانت علمية في هذا المجال.

لقد اعتبر الفرنسيون الكتب والمخطوطات التي وقعت بين أيديهم، الخاصة منها أو المحبّسة على المدارس والمساجد والزوايا، غنيمةَ حرب ، يحقُّ لهم امتلاكها والتصرّف فيها كيفما شاءوا، ووضعها تحت مجهر البحث الموجّه غالباً. ويمكن تلخيص أهمّ الجهود الاستشراقية للفرنسيين ومن انتسبَ إلى مدرستهم المنصبّة على دراسة المخطوطات الجزائرية، وصفاً أو تخريجاً أو نشرا أو ترجمة و استنباطاً من تراجمهم وآثارهم . كلّ تلك الأعمال فضلاً عن آلاف الكتب والأبحاث والدراسات والمقالات المنشورة عن الجزائر وتراثها المخطوط في المجلات والنشريأّت العالمية، من قِبلِ :دي تاس ،ً دوما، دي جرامون، آزان، بارادايزٌ، جوليأّن، دستان، بِلْ، مونتان...وآخرين.

وكانت **بداية النشاط العلمي الاستعماري بالجزائر بتأليف موسوعة استكشاف الجزائر العلمي** على شاكلة "وصف مصر"، بغية الوصول إلى تحقيق أهداف كثيرة، كان أبرزها الحيلولة دون خروجهم من الجزائر مثلما حدث لهم في مصر، ولن يكون ذلك إلا بتوظيف تجربتهم في مصر والاستفادة منها، ومنها توظيف الجيش العلمي والاستفادة من أعماله. فأسسوا اللجنة العلمية لاستكشاف الجزائر بصفة رسمية في 14 أوت 1837، والتي جاءت أعمالها في 39 جزءا، على رأسها الاهتمامات التاريخية والجغرافية والفنية والآثرية، والتاريخ الطبيعي، والزيولوجيا. وإضافة إلى الأعمال المنشورة في الموسوعة نذكر أيضا أعمالا مكملة لها، وتعتبر هي الأخرى ملاحق للموسوعة لأنها من صميم ما ألف علماء الحملة الفرنسية بالجزائر، نذكر منها: **أعمال الجمعية التاريخية**، أسسها قادة الاستعمار العلمي بقيادة بيربروجر خصيصا

لدراسة تاريخ الجزائر عبر العصور وباعتبار أن الفرنسيين كانوا يطلقون على الجزائر تسمية إفريقيا ومنها جيش إفريقيا، أسسوا لها مجلة متخصصة وهي المجلة الشهيرة "المجلة الإفريقية" التي تعتبر جزءا لا يتجزأ من أعمال موسوعة استكشاف الجزائر العلمي. و **أعمال الجمعيات الأثرية التي** أسسها الفرنسيون في قسنطينة ووهران وجعلوا لها دوريات متخصصة وهي: "مجموع نشرات ومذكرات الجمعية الأثرية لمقاطعة قسنطينة" و **عمل وزارة الحربية** باعتبار أن الجزائر كانت تسيّر بطريقة مباشرة من طرف وزارة الحربية، فقد ألف الفرنسيون سجل الاستعمار الفرنسي بالجزائر (Tableau de la situations des établissements français dans l'Algérie)، **وكتابات علماء جيش الحملة عن الجزائر:** وهم المؤيدون لمشروع اللجنة العلمية لاستكشاف الجزائر، بل وهم من أعضائها مثل أونفونتان، بيليسيي، أوربان، وارني، بيرون... و تم في 14 أوت من عام 1837 اصدار وزير الحربية الجنرال برنارد مرسوما أسس به "اللجنة العلمية لاستكشاف الجزائر" وحدد فيه المهمة التي ستتولاها وهي مهمة علمية بحتة. ويتضح ذلك من خلال مراسلته إلى الحاكم العام بالجزائر آنذاك الماريشال فالييه. حيث أخبره بأن "طبيعة مؤسستنا في الجزائر هي إلى حد الآن طبيعة علمية بحتة وليست حربية.

و قد تجسدت اهم الكتابات في المجلة الافريقية 1856-1962، كتابات بيربروجر الذي عمل على الحاق الجزائر بالغرب والمسحية والفرنسة، نذكر أيضا جهود ألبير دوفو (Albert DEVOULX) التي نشرها على شكل مقالات بالمجلة الإفريقية بين 1861 و 1870 ثم أخرجها في كتاب سنة 1874، وهو أيضا جهد كبير لخدمة أهداف الحملة. و شارل بروسلار فقد درس الكتابات الأثرية بالغرب الجزائري... تحت عنوان "النقوش العربية بتلمسان". وهي دراسة مطولة نشرها بالمجلة الإفريقية عبر سنوات 1860 – 1862. وتناولت شواهد وقبور سلاطين وأمراء بني زيان.

اذ عملت الشخصيات والمؤسسات الفرنسية على كتابة تاريخ الجزائر ضمن تاريخ "إفريقيا الشمالية" وهذا بالاعتماد أساسا على الوثائق والنصوص التي كانت منشورة في تلك الفترة. ودون الخوض في تفاصيلها، تكفي الإشارة إلى عدد من الأسماء التي تركت بصماتها في كتابات تلك الفترة على غرار كارات (Carette) وأرنست مرسيي (Ernest Mercier) وفورنال. كما ظهرت مؤلفات فرنسية بمناسبة مئوية احتلال الجزائر والتي كان لها تأثير كبير في توجيه المنظور التاريخي الخاص ببلاد المغرب بصفة عامة، خصوصا بعدما نشر إميل فليكس غوتييه(Emile-Félix Gautier "(أسلمة إفريقيا الشمالية.

الاستاذ تونسي عبد الرحمن

خميس مليانة